قصيدة الكُنت رُشيد الدحداح

في مدح باي تونس

كان جناب الاديب الشيخ سليم افندي الدحداح ذكر في خلال ترجمة الكنت رشيد الدحداح (المشرق ٤٠٦:٤) قصيدة عامرة الابيات نظمها المذكور في مديح باي تونس نحو سنة ١٨٦٣. ولم يسعدهُ الحظ وقتئذٍ على وجود هذا الاثر الجليل لِثبتهُ في جملة اخبار حياتهِ. وقد توفّق آخرًا الى اكتشافها عند بعض اقاربهِ الافاضل فاحببنا نشرها في مجلّة المشرق لتكون كمادّة لتاريخ ذاك الرجل الفريد. وهذه القصيدة عبارة عن بَيْف و ٨٠ بيتًا وهي لاميّة كقصيدة كعب بن زهير المشهورة. اما الممدوح فهو السيد محمد صادق باشا الباي الثالث عشر على تونس العرب تولى الامر من سنة ١٢٧٦ الى ١٢٩٩ (١٨٦٠—١٨٨٣). وقد بيّنّا في المشرق ما حظي بهِ الكُنت رُشيد من علو المنزلة عند امير تونس فلا حاجة الى التكرار ولهُ على قصيدتهِ هذه شرح مطوّل وكلامها لم يُنشر حتى الآن

ل. ش

بانت سعاداتنا والفتح مكفولُ ... باسم المليك فلا تُلهيك عطبولُ (١
وأجفُ النسيبَ تسقى قربها لكَ او ... بانتْ سُعاد فعنها القلب مشغولُ (٢
إنَّ المديح لولانا الخطير غدا ... وقفًا عليهِ فما لي عنهُ تحليلُ (٣
هو الهمامُ الذي جلّت محامدهُ ... بذلٌ عزيزٌ ومنهُ الجود مبذولُ (٤
محمّدٌ اسمهُ المرفوع مبتدأٌ ... ممدّحٌ فعلهُ بالرشد موصولُ
ممجّدٌ شأنهُ اذ طاب عنصرهُ ... مفخّمٌ قدرهُ حلاّهُ تبجيلُ
مسدّدُ الرأي كابن العاص طاع لهُ ... من الامور الابيّات العراقيلُ (٥
مشدّد العزم ضاهى خالدًا بطلٌ ... وما ابن صفوانَ اعني فهو معذولُ (٦
يغزو العداة « بأني ظافرٌ بكم » ... فينكصون اذا ما لاح تهويلُ (٧

---

١) العطبول المرأة الحسنة الفتيّة
٢) النسيب التشبيب بالنساء. وسعاد من اعلامهنّ
٣) هلّل عن الشيء نكص وحاد ٤) يقال رجل بذل اي شريف
٥) يريد بابن العاص عمرًا فاتح مصر وكان مشهورًا بحسن رأيهِ والعراقيل صعاب الامور
٦) يشير الى خالد بن الوليد صاحب الفتوحات الشهيرة والى صاوية بن صفوان اول خلفاء بني اميّة
٧) يريد انهُ مؤيد بالظفر كانَ شعارهُ « اني ظافر بكم » وهي جملة قرآنيّة

نَدبٌ شجاعٌ سخيٌ لوذعيٌ حجىً برٌّ رؤوفٌ كثيرُ اللطف بُهلول (١
تكأّف البدرُ اذ حاكى محاسنَهُ وفيهِ مع كَتْمِ نقصٌ وتبديلُ
هلالُ شكٍّ محالٌ ان تطابقهُ عينُ اليقين وقد اعماهُ تسخيلُ (٢
لكنما الشمس لم تجحد مزيّةَ مَن وافى وفي نورهِ للحقّ تبتيلُ (٣
متى تُقاربُ مقام الغرب من خجلٍ تصفرُّ وجهاً كمن فيهِ عقاربُ (٤
فعينها ان تصبْ شيئاً يجفُّ وفي تسويدها الناسَ تسويدٌ وتذليلُ
لهُ عليها بتخضير الربوع وتبـ ـيض الوجوهِ وبالتحرير تفضيلُ
وحاسدو فضلهِ قد ضاق ذرعهمُ لهُ الكمال وفيهم عنهُ تبغيلُ (٥
فالبرق مزّق جيبَ الصبر خُلّبُهُ اذ قيل لم يلقَ وعدٌ منهُ مطولُ (٦
والبحرُ ازبد بالامواج ملتطماً لانهُ منهلٌ بالراح معلولُ (٧
جاورتُ بحراً فما امسكتُ منهُ جنًى الّا كما يُمسك الماء الغرابيلُ
لقد اجاور يوماً بعدهُ ملكاً فيّاض نعمى وللحسنى جمليلُ (٨
إنّ ابن مامةَ والقعقاعَ ثمّ ابا سفيانَ لا يذكرُهم بعدهُ جيلُ (٩
قد فاقهم باقتدارٍ مع حلًى وعلًى إن قال اسمعتُ ذا فالامرُ مفعولُ
ناديهِ قبّةُ نجران اقصدهُ فمن جور الزمان بهذا العصر مؤولُ (١٠
ابا دلامةَ لا اقنوكَ سائلهُ ففي جوابٍ عليّ جاء تمثيلُ (١١
لكن اقول وقد كبّرتُ من ثقتي به اليك الثراء اليوم موكولُ (١٢

---

١) النَّدب النجيب . والبُهلول السيد الكامل
٢) يقال سخّلهُ اذا عابهُ وضعّفهُ ٣) التبتيل الاخلاص
٤) العقارب بقية الداء ٥) بغّل عنهُ اي قصّر واعيا
٦) البرق الخُلّب الذي لم يُعقبهُ مطر يُضرب فيهِ المثل للوعد الكاذب
٧) يريد انّ عربدة البحر تُشبه غيظ السكران الذي ضربت سوردةُ الخمرة في رأسهِ
٨) جَمْليل للحسن اي يجمعها كلها في شخصهِ
٩) يُضرب المثل في كعب بن مامة والقعقاع بن شور واني سفيان بالجود والكرم
١٠) كان عرب اليمن يحجّون الى قبّة النجران بناها بنو الحارث وتدعى ايضاً كعبة نجران والمؤوّل الملجأ ١١) عُرف ابو دلامة الشاعر بالإلحاح في الطلب
١٢) كبر صاح الله اكبر . والثراء الغنى

وما الثراء بلا عزّى بقربهم ... نجحٌ ولكنهُ عندي السلاسيلُ (١
اما اذا خصّني منّا بخدمتهِ ... فالرغدُ محتكمٌ والهمُ معزولُ
ما كلُّ سمحٍ مليكٌ فيهِ مقدرةٌ ... ما كلُّ ملكٍ كريمٌ منهُ تنويلُ
فالمرء إنْ نال امرًا فاتهُ ارَبٌ ... وقد يكون مع الفضل الرعاييل (٢
لكنَّ سيدنا قد نال كلَّ مُنًى ... تبارك الله موتي مَن يشا قولوا
عاف التعرُّضَ للاكفاء مكرمةً ... ومَن تجنّى على ذي السام يلتليلُ (٣
لكن اذا حاولوا دوسًا لساحتهِ ... تتناشهم من حواليها عكازيلُ (٤
فواقفون لديهِ عند حدهم ... محاملين وقارًا فيهِ تجميلُ
إن كانروك فقُلْ لا يستوي وانا ... فالمستقلُّ ربي للأمر معقولُ (٥
ان قستَ فيهِ كرام العصر قاسهمُ ... لهُ شتات معاليهم سرابيلُ
ذر محتدٍ عربيٍّ ملكهُ رِتَةٌ ... عن منجبٍ حسنت فيهِ الاقاويلُ
ما بالرعايا شقاقٌ في محبّتهِ ... كلٌّ مفدٍّ وفيهم قيلهُ القيلُ
إن نال مَلْكٌ سواهُ من رعيّتهِ ... فالرزق من ملكهِ للناس مجعولُ
ما إن عليهِ ترى دينًا يباع ولا ... قضاء معارم دين المالك مجهولُ
وعرشهُ فلكُ المجد الرفيع لذا ... اعوانهُ النجمُ زهرٌ اهاليلُ (٦
فكلُّهم ناصحٌ حرٌّ بخدمتهِ ... والمصطفى عندهُ للفضل اكليلُ
والبلد الطيّبُ الارض التي شرُفتْ ... بهِ فما لحماها الرَّحبِ تعضيلُ (٧
وسوف ترهو ليكسى بحرها سُفنًا ... وتبتنى مُدنًا منها البراغيلُ (٨
لانَّ همّتهُ العليا وحكمتهُ ... لا يعجزانّها في الكون تحصيلُ

---

١) يريد انَّ السائل يصيب الغنى عند الممدوح مع صيانة ماء وجهه عزّة نفسه. ولولا ذلك لكان الغنى لا طائل تحتهُ كالسلسبيل وهو السراب

٢) الرعاييل اخلاق الثوب. اي ربما كان الفضل مع الفقر والثياب الرثّة

٣) تجنّى عليهِ تشكّى والطليل السَّبُعُ الخلق الدنيّ

٤) العكازيل براثن الاسد واظافيرهُ. وتتناشهم تتناولهم

٥) الامر بالفتح الحال وبالكسر الدبب

٦) الاهاليل المهلّة الساطعة النور ٧) يريد ترنس عاصمة الباي. وعضل المكان ضاق

٨) البراغيل الواقعة بين الريف والصحراء

فنهما لنموّ الملك قد لمعتْ بروقُ سعيٍ بها للنجح تأميلُ
مهما يُرام لإسعاد البلاد به من الامور لها من فضله نيلُ
عزمٌ وحلمٌ وانصافٌ ومعدلةٌ حزمٌ وعلمٌ واسعافٌ وتنكيلُ
وكلُّ ذا بعض ما مَنَّ الكريم به وجاء منهُ عليهِ فيهِ تنزيلُ
مولايَ جدّدْ أجدْ اصلحْ أقلَّ وزِدْ كمّلْ وظُمْ فذا للملك تعديلُ
بمثلهِ العُجمُ نالوا من سباخهمِ ويمّا وخصباً به للعزّ توسيلُ (١
لكنْ بجدّك بالآباء بالكرما آل أشبال مَن بيتُهم بالمجد مأهولُ
بالجود باللطف بالصيت الحميد باخـــلاقٍ لك الدهرَ منها الخير مسئولُ
لا تجعلنْ هذهِ الاعمال منشئةً شيئاً بهِ عن خلال العرب تحويلُ
انّ البديع لقد وفّى بوصفهمِ نِعم البيان ونِعم الوصف والجيلُ
والتابعو المَذْب والتمدين انهمُ شطّوا فجاء مع التصليح تعطيلُ (٢
حُبّ التبدّل اضحى مذهباً لهمُ مع انّ في بعضهِ خسرٌ وتضليلُ
نفيُ العظام بناهاً عند بعضهمِ او ان يلي الامر كل الناس تجهيلُ (٣
وآخرون اجدُّوا الحين فاختلقوا كلٌّ لهُ للكتاب الآن تأويلُ
تخرّجٌ خاتُ فيهِ موت افندةٍ في البعض او انّ فيهِ الطبع مبدولُ
امر استفردَ مع كرلوسَ قِنْهُ على آل مهدي ومن فتكفيك التفاصيلُ (٤
لم يبقَ من عربيّ خضرمٍ علَمٍ لنا سواكم يرجّى منهُ تفضيلُ (٥
حُييتَ من كوكبٍ بالغرب ذاع سنًا للخافقَين وفي علياهُ تظليلُ
بهِ وان كنتُ في صقعٍ بغيرٍ هدًى لا شمس فيهِ على الخيرات مدلولُ
هديّةٌ انت قد جاد الزمان بها وكم على مثلها لاقاهُ تبخيلُ

---

١) ساخ الارض ما لم يُزرع منها ولم يُحرث . والتوسيل التقرّب بالوسيلة
٢) المَذْب الاصلاح ٣) بناهاً اي بنة بعد بنة
٤) يشير الى الكُنت دي ستراڤورد (C^te de Strafford) وزير كرلوس الاول ملك انكلترة قُتل فذهب ضحيّة إخلاص ولائهِ للملك الذي خدمهُ سنة ١٦٤١ . اما من فهو من بن زائدة واسرهُ مع المهدي الخليفة العبّاسي مشهور
٥) غفلهُ وغفّلهُ كفاهُ

ما كنتُ كالهدهد أنْ أهدي المديح لكم ... لكنما لي اداء القرض تثقيلُ (١)
فهاكهُ من فؤادٍ صادقٍ دنفٍ ... بالحبّ بعض الذي يحويهِ مقولُ (٢)
اذ انجب الدهر بالمولى ونعم فتى ... أتحفتهُ بفتاةٍ حسنها السولُ (٣)
دلّت عليهِ وما ذلّت لغير فتى ... تاهت بهِ شخصهُ باللطف مشمولُ
قريحتي لم تكن من قبلها نُتجتْ ... شعراً على انّ قلبي فيهِ مبتولُ (٤)
وأنلاتيَ للأقلام منذ نمي ... عاف الرضاعة اظآرٌ مطافيلُ (٥)
وطالما صادمتْ مني اليمين بها ... دهراً على اهلهِ في حكمهِ الغولُ (٦)
هذا وقد كنتُ كالضبيّ حتى بدا ... لي ذو عُلًى مدحهُ للفتح تعجيلُ (٧)
قلتُ هذا مجال القول فابتدرنْ ... فنيهِ للّسن المرضيّ تخويلُ
ان لم اكُن فارس الميدان مقتنياً ... كعباً فلي في اقتدائي اليوم تفضيلُ (٨)
او لم يكُ النظم مني شيمةً عُرفت ... فعادةً منك نثر البرّ مأمولُ
فاسعدْ ودمْ بهذا عيشٍ يظلّلهُ ... مجدٌ وعزٌّ واقبالٌ وتبجيلُ
واعذرْ فاني بها اعذرتُ مجتهداً ... وان فضلك للتعذير تعقيلُ
عادتْ لمدحك بالشعرى معانقةً ... ونشرُها بنسيم الصبح محمولُ (٩)
وفتحها سوف تُتلى بعدهُ صحفٌ ... وجوهُ شكري بها بيض يعاليلُ (١٠)
فانْ يقلْ ناصحٌ خلِ القريض ودعْ ... انّ الاماني والاحلام تضليلُ
اليك ما حرفة الآداب مسعدةً ... وما مواعيدها الّا الاباطيلُ
قلتُ اشعرنْ بعلًى فيها شعرتُ وقُل ... بانت سعاداتنا والفتح مكفولُ

---

١) يشير الى قصة الهدهد مع سليمان الحكيم . وهي من اقاصيص العرب الثالثة
٢) مقول على اصل الكلمة بدلًا من مَقول
٣) يريد بالفتاة القصيدة التي نظمها ٤) المتبول الهائم المشغوف بالحب
٥) شبّه الاقلام بالرضعة الحديثة العهد بالولادة وجعل المداد السائل منها بمنزلة اللبن
٦) اي انّ يمينهُ بالكتابة غلبت الدهر ثم شبّه الدهر في حكمهِ بالغول
٧) يشير الى مديح الضبي الشاعر للفتح بن خاقان الوزير
٨) يريد كعب بن زهير الذي عارض الشاعر بهذه القصيدة لاميّتهُ الشهيرة
٩) الشعرى احد كواكب برج الجوزاء
١٠) اليعاليل جمع يَعلول وهو السحاب الابيض